المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254
العدد 14A آب 2024
No.14A Aug 2024

صراع البقاء والفناء في رواية تغريبة القافر لزهران القاسمي

م. م. نجلاء أحمد حسن
قسم الترجمة - كلية الآداب-الجامعة العراقية

ملخص البحث

تناولت الدراسة قضية الصراع بين البقاء والفناء في رواية تغريبة القافر لزهران القاسمي البقاء الذي يعني الحياة بجميع صورها من رفاه ووفرة الماء والطعام والحب والعلاقات الاجتماعية المنسجمة والأمومة، والفناء الذي يعني الموت والألم والحبس والفقر والجوع والفقد والفراق والحرمان، وفي كل ذلك يتخذ الماء العنصر الأساس الذي يعطي المعنى لكل شيء يعطي الحياة والموت، والفرح والحزن. واعتمدت الدراسة المنهج التحليلي الوصفي فضلاً عن التأويل لتتبع ثنائية البقاء والفناء بوصفها الموضوع الأبرز في الرواية.

كلمات مفتاحية : البقاء ، الفناء ، تغريبة القافر ، زهران القاسمي

The struggle for survival and annihilation in Zahran Al Qasimi's novel The Exile of the Infernal

A. L. Najlaa Ahmed Hassan
Translation Department -college of Literature- Iraqi University

Research Summary

The study addressed the issue of the conflict between survival and annihilation in Zahran Al-Qasimi's novel The Exile of the Wanderer. Survival, which means life in all its forms, including well being and abundance of water, food, love, harmonious social relations, motherhood, and annihilation, which means death, pain, imprisonment, poverty, hunger, loss, separation, and deprivation. In all of this, water is the basic element that It gives meaning to everything. It gives life and death, joy and sadness. The study adopted the descriptive analytical approach as well as interpretation to trace the duality of survival and annihilation as the most prominent theme in the novel.

Keywords: survival, annihilation, the migration of the infidel, Zahran Al-Qasimi

صراع البقاء والفناء في رواية تغريبة القافر لزهران القاسمي

إن ثنائية البقاء والفناء من الثنائيات التي نعيشها في حياتنا اليومية، وهي تمثل ثيمة بارزة في الرواية . فالرواية تُعدّ المرآة التي تعكس الواقع مستخدمة الخيال في توظيف مختلف الموضوعات والقضايا.

إن البقاء في اللغة هو ضد الفناء ، بقي الشيء يبقى بقاءً، والاسم منه البِقيا والبُقيا، والبقية تعني ما تبقى من الشيء. (1)

أما الفناء لغة فهو نقيض البقاء، وفني يفنى فناء: هرم واشرف على الموت. وتفانى القوم :أي افنى بعضهم بعضا في القتل. (2)

(1) ينظر: لسان العرب، أبن منظور، مادة(بقي)،م1/ 167-168.
(2) ينظر: المصدر نفسه، أبن منظور، مادة(فني)،م10/ 338.

من المعنى اللغوي للكلمتين يتضح أن البقاء يعني بقاء الشيء والاستمرارية والديمومة وهذا ينطبق أيضا على الحياة التي تعني الاستمرار في العيش والوجود، والضد منه الفناء الذي يعني النهاية وعدم الاستمرارية في الحياة الذي يجسده الموت .

وفي رواية تغريبة القافر لزهران القاسمي* نشهد حضور ثنائية البقاء والفناء بوصفها ثيمة رئيسة، محاولين الكشف عن اشكالها المختلفة التي حكمت النص.

تبدأ الرواية بمشهد الموت ((غريقة.. غريقة..))

ارتفع صوت الطارش في بلدة المسفاة وهو يطرق الابواب ويصيح بالناس:

((غريقة.. غريقة.. حد غرقان في طوي لخطم..)) [1] وارتعب كل من في القرية عندما سمعوا صوت الطارش الذي جاء بخبر الغريقة التي وقعت في البئر. الموت يخيفهم لأنهم يجهلون مصيرهم أو لأنهم يخافون العالم الآخر المجهول، فالموت يعني الفناء وانتهاء رحلة الحياة بالنسبة للإنسان.

ومن دلالات الفناء في الرواية فقد الأحبة وما يصاحبه من حزن شديد فبعد موت مريم أخذ الحزن منه مأخذا كبيرا وكأنه أصبح جسدا من دون روح فروحه غادرته إلى مكان آخر واشتد به المرض، وعندما عادت له قواه ذهب عند كاذية وبكى وبدأ بالنواح بصوت مكتوم. [2] هذا ما شعر به عبد الله بن جميل عندما فقد رفيقة دربه وحبيبته وأم طفله سالم، فأصيب بالوهن والنحول والكآبة لفراقها تاركة خلفها سلسلة من عذابات وجروح لا يمكن نسيانها.

إن الموت الذي أخذ أطفال اسيا بنت محمد كلهم فلم تردعه الطلاسم ولا الاسماء الشائنة تبعده ولا حتى الطب يمنعه [3] تسبب في جرح قلبها وفقدها طعم الأمومة وجعلها تعيش حالة الكآبة وتنطوي على نفسها من الأسى العميق.

وقصة الوعري الذي رحلت أمه عنه وهو طفل صغير، وظل يجهش بالبكاء عند رأسها الذي كانت تسيل منه الدماء. [4] فعاش حياته حزينا عليها . ولم يسلم والد سالم من الموت فقد مات هو الآخر[5]، وماتت ذاكية بعده من شدة الحزن عليه، وتألم لفراقها الوعري[6]،((وصار يختار الليالي المظلمة ليقضيها جالساً عند قبرها، يحدثها عن تلك اللواجع التي عاشت في صدره، ويخبرها بحكاياته التي ودّ لو اسمعها إياها منذ زمن)) [7]

والفقد ترك جرحا عميقاً لنصرا بنت رمضان زوجة سالم، فبعد رحيله من اجل البحث عن الفلج في أرض بعيدة عنها لم يعد من سفره وظلت ذابلة الروح وهي((تتحرك صامتة، كأنها فقدت القدرة على الكلام والفرح، فهجرت الأغاني شفتيها)) [8]

وهكذا يظهر الموت في الرواية ليكون جزءا من نسيجها اللغوي الذي يتضح منظره من خلال منظومة السياقات التي تتحكم في العلامات السردية[9] إذ يشغل مساحة كبيرة من النص

---

* شاعر وروائي ولد في السلطنة العمانية عام 1974م، وصدرت له اربع روايات(جبل الشوع عام 2013،وجوع العسل عام 2017،وتغريبة القافر عام 2021) اضافة إلى العديد من الدواوين الشعرية. وله سيرة الحجر الجزء الأول الذي ضم قصصاً قصيرة صدرت في عام 2009، والجزء الثاني الذي ضم نصوصاً في عام 2011م ينظر: https://arabicfiction.org/ar/node/2101

(1) تغريبة القافر، زهران القاسمي: 7.
(2) ينظر: تغريبة القافر:38-39.
(3) ينظر: المرجع نفسه:54.
(4) ينظر: المرجع نفسه:94.
(5) ينظر: المرجع نفسه:147-148.
(6) ينظر: المرجع نفسه:151.
(7) ينظر: تغريبة القافر:151.
(8) ينظر: المرجع نفسه:204.
(9) ينظر: سرديات عراقية إضاءات في القصة والرواية والنص، د. فاضل عبود التميمي:109.

فشخوص الرواية تتجرع الأسى والفقد، وتتكسر قلوبها على من تودهم، وهو صراع يتركه الفناء الذي تجسد بالموت والألم والحنين للآخر الذي رحل دون عودة .

أما دلالة البقاء فتتنوع ما بين الأشياء التي تشير إلى تلك الثيمة من بين عيش رغيد وعشب كثيف وأمطار ومياه كثيرة وخصب. كما أن عنوان الرواية الذي يشير إلى اسم بطلها هو أيضا يجسد البقاء. فالعنوان له أهمية كبيرة فهو يلعب((دوراً كبيراً في فهم النص الذي يهم القارئ بقراءته، كيفما كانت طبيعة النص. ومن ثم، اصبح من اللازم للكاتب أن يختار العنوان الجيد لعمله، بشكل يتماشى مع أفق انتظار القارئ؛ لأن العنوان يشكل الإشارة الأولى التي يجدها المتلقي عندما يبدأ القراءة)) [1]

إن عنوان الرواية (تغريبة القافر) الذي يجسد البطل في بحثه عن الماء حين يحفر الفلج ويقتفي أثر الماء ليوصله إليها، والماء هو مصدر الحياة للإنسان ولمختلف الكائنات فهو يشير إلى ديمومة العيش أي هو من العوامل التي تجسد البقاء في هذا الكون ونقصه أو شحته يشير إلى الخراب. واسم القافر ((تنبثق عنه شبكة دلالية يفتتح بها النص، ويؤسس لنقطة الانطلاق الطبيعية فيه، إذ يأتي بوعي الكاتب الذي يهدف إلى تبئير انتباه المتلقي على اعتبار أنه تسمية مصاحبة للعمل الأدبي مؤشرة عليه تقود إلى تخليص معنى النص المكتوب بين دفتين، وتلوح عنها بارقة تُحيل على خارج النص)) [2]

فعنوان الرواية يمثل نصاً موازياً مكثفاً، يُسهم في تشكيل الفكرة الأساسية للنص، كما يُسهم في الكشف عن المقاصد الضمنية للروائي[3] ((فهو بنية صغرى تعمل في حيز بنية أكبر هي النص الروائي، كما انه جزء لا يمكن النظر اليه خارج سياقه فيتم اختياره في ضوء العلاقة الوثيقة التي تربطه بالنص)) [4] وتنعقد مهمة بطل الرواية في البحث عن مصدر الحياة الماء من خلال ما يمتلك من موهبة دقة السمع فهو القادر على سمع خرير المياه في اعماق الارض، ((فاحنى رأسه ووضع أذنه على الأرض تماماً عند جذعها، ثم بدأ يهمس بكلمته التي يرددها دوماً في تلك الحال..((ماي..ماي..)) [5]

يجسد الماء في الرواية المحور الأساس وتتفرع منه الاحداث، ويقوم على البعد التضادي فتارة يمثل البقاء وتارة أخرى يكون الفناء، وهذه الثنائية التي يظهر فيها الماء يختلف معها الشعور بالأطمئنان والخوف، والرغبة والرهبة .

تم توظيف الماء ليرمز إلى الحياة واختلاف مصادر الحصول عليه، فيكون المطر الذي يغيث الناس ويسعدون بنزوله من أجل سقي أرضهم ونماء نباتهم واستمرت الحال بهم على ذلك((من سيول وخصب سنوات لم يشعر الناس خلالها مرة بانقطاع السحاب... إنما ظلوا يسقون ضواحي النخل والبساتين ويوردون مواشيهم المياه الوفيرة)) [6]

سالم يعد رحلته في البحث عن الماء هو سر سعادته عندما ينصت إلى صوته المنبعث من تحت أعماق الأرض، ويعتمد في الاستدلال على حاسة سمعه واثقاً منها في ايصاله إلى الماء((لكن سالم بن عبد الله قال لأبيه وهو يحدثه بهمس:

-الماي ما هنا، الماي هناك.

وأشار إلى نقطة قد تعداها الحفر، وهي في اتجاه اليسار بعيداً عن مسار الفلج)) [7]

---

(1) تجليات علم السرد قراءات تنظيرية وتطبيقية، دز منال بنت عبد العزيز العيسى:65.
(2) تمثلات الموت في الرواية العراقية 2003-2013، فارس نايف الفايز:161.
(3) الخطاب في الأجناس الأدبية مداخل ومنظورات، أ.د. عزة شبل:179.
(4) مقتربات السرد الروائي دراسات في تقنيات سردية لنصوص روائية،د.سمير الخليل:29.
(5) تغريبة القافر:72.
(6) تغريبة القافر:97.
(7) المرجع نفسه:110.

سالم لم يكترث بسخرية اهل القرية منه ومن تعالي صيحات ضحكاتهم، واستمر هو وأبوه في عمليات الحفر للبحث عن الماء وبعد طرقات متكررة قام بها أبوه كي يخلخل جوانب الصخر إذا بماء قليل يخرج من الثقب الذي احدثه وقع المسمار على الصخر. اندهش ابو سالم ثم التفت إلى القافر فرأى في عينيه الهيام، حالة من الفرح العارم، وسرعان ما سمع أهل القرية خرير الماء فجاءوا حوله وهو يردد لعبته القديمة ماي ماي [1] هذه هي نشوة الشعور بالحياة اتصاله بمعشوقه منذ الصغر الماء رمز وجوده يتعلق به كتعلق الطفل بأمه، فالماء الذي أغرق أمه منحه قوته فصار الدليل عليه يخرجه من سجنه تحت الأرض ليروي به عطش كل من حوله.

كان الخصب يمثل السرور لأهل القرية اصبح ينمو بفضل مياه الأمطار التي سقطت على أرضهم من دون رعود أو بروق ولا رياح لا شيء غير ماء مسكوب على الأرض فاحيت الامطار فيهم كل شيء واستصلحوا ارضهم وفرحوا بالحقول الخضراء وبالمياه العذبة التي ترويهم. [2] هكذا جسد الماء بمختلف مصادره من أمطار وعيون تتفجر من باطن الأرض بفضل القافر الذي يتتبع وجودها صورة البقاء وديمومة الحياة التي لا يمكن أن يتصور أحد العيش من دون ماء يروي الارض والبشر والكائنات كلها.

والوجه الآخر للماء في الرواية يمثل الصورة القاتمة التي تعني الفناء الذي يسبب الرعب فجاءت معه الرياح القوية التي كادت تسقط اسطح البيوت على ساكنيها، وبدأ المطر ينهمر بشدة وجرفت السيول البساتين وذابت جدران البيوت الطينية، وهرع الناس لكي يحتموا بكهوف الجبال من شدة الأمطار التي دمرت كل شيء واصبحت بيوتهم أثراً بعد عين [3] أفنى الماء خصبهم وسحق بيوتهم ليجرفها مع سيوله القوية واجبرهم على الخروج ليفروا إلى الجبال خوفا من الموت.

يجسد الماء الفناء في أخذ الأرواح فافنى حياة مريم التي خرجت في أحد الأيام من بيتها متجهة نحو البئر فوضعت قدميها على حافتها وامسكت بالحبل وتدلت هابطة في البئر ملبية نداء الصوت الذي يناديها ويكرر على مسمعها تعالي، وإذا ثقل جسدها على الحبل أفلتت يديها وسقطت في الهوة العميقة. [4] انهى حياة مريم التي كانت كالزهرة في بيتها صاحبة الابتسامة الجميلة التي لا تفارق وجهها كانت تدخل السرور إلى قلب زوجها كلما نظر إليها لكن غرقها سبب الدهشة والوجع لأهلها.

كما أنهى الماء حياة عبد الله بن جميل والد سالم بعد انهيار سقف سطح القناة التي حفروها مات وهو ينادي على ابنه عطشان عطشان[5] فلم يستطع الارتواء ومات فيها فصار سالم ينظر إلى أبيه الذي خسره بسبب الماء، كما خسر أمه وهي تحمله في بطنها.

وطالت المياه سالم بعد صراع كبير من أجل الحفاظ على حياته ليرى النور مرة أخرى إذ جرفته المياه المتفجرة من الصخرة التي أخذ يدق عليها فتهشمت وجرفته المياه إلى أعماق القناة بعد أن عجز عن التمسك بشيء يحول دون ذهابه مع تيار المياه [6] وهنا بدأت رحلة الصراع بين سالم والماء تشقلب جسده ودوامات الماء تتلاعب به في تعرجات القناة ليصاب بخدوش[7] لم يستسلم القافر للموت فازدادت قسوة الماء عليه وكاد ان يختنق واصيب بشد عضلي توقف عن السباحة وصرخ من شدة الألم فاسكته الماء بعدما دخل في فمه، ثم دخل الماء الممزوج

(1) المرجع نفسه:110.
(2) تغريبة القافر:35-36.
(3) ينظر:المرجع نفسه:43 .
(4) ينظر:المرجع نفسه:26 .
(5) ينظر:المرجع نفسه147-148 .
(6) ينظر:تغريبة القافر:183 .
(7) ينظر:المرجع نفسه:185.

بالاتربة إلى عينيه فبدأتا تدمعان، وارتطم رأسه بجدار القناة واخذه التيار بعد أن استسلم جسمه له. (1)

في كل مرة يحاول القافر أن يتشبث بالحياة ويصر على البقاء، لكن محاولاته في النجاة تبوء بالفشل، لكنه يظل يقاوم ممنياً النفس بالنجاة وأنه سيرى النور وما يفصله عن العودة إلى أهله إلا الشيء القليل .

ظل جسده في الماء نصفه غارق والنصف الآخر يتكئ على الجدار بحث عن سبل نجاته المطرقة والمسمار ليحطم الصخرة التي تعيق خروج الماء ليكمل تدفقه على طول القناة ولكنه لم يعثر عليهما، وحاول أن يسير عكس التيار وكلما قطع مسافة أعاده الماء إلى مكانه الأول. (2)، وكأن الماء يريد أن يجرب معه كل ألوان العذاب فلا يترك له أملا واحدا حتى وان اصر على تجربة سبل عديدة للنجاة .

الماء حاصر سالم من كل مكان صار حبيس تياره لا يقدر على الخروج من اعماقه اتعبته جروحه، وارهقه الجوع فاكل العناكب والسحالي من اجل اسكات جوعه(3) لا زال يقاوم الفناء ها هو يجد ما يتغذى عليه فيتأقلم مع حياة جديدة تحت الماء يتغذى على الحشرات والزواحف يُسخّر كل شيء لصالحه، يقاوم الفناء الذي يحيط به من كل جانب، من ظلمة المياه فلم يعد يرى الأشياء كما كانت في ضوء الشمس على اليابسة، ومن فقد الغذاء اللذيذ الذي كانت زوجته تعده له.

بعد بحث وجد سالم المسمار ووضعه بالقرب من خاتم الفلج وظل يبحث عن المطرقة وبعد عناء تمكن من العثور عليها(4) اخذ يدق الصخرة بعد ان يثبت المسمار فيها فيسقط الحجر منها شيئا فشيئا فكبر الأمل عنده، وبينما يثبت المسمار في مكان الصخرة الذي لم يكن يعلم بهشاشته إذا به ينزلق إلى اسفل الثقب وجرفه التيار وعلق في الداخل في مكان من الصعب الوصول إليه حاول أن يصل ليمسكه لكنه لم يستطع ذلك ومع سقوط المسمار تبخرت احلامه وأمانيه التي نمت. (5)

ظن سالم أنه اقترب من النجاة ولا يفصله عن تحقيق حلمه إلا القليل، لكن الماء كان له رأي آخر، فافلت المسمار من مكانه وجرفه إليه ليرى في عين سالم الأمل المفقود والخيبة الكبيرة والحسرة على نفسه المقيدة من دون قوة .

لم يعد يشعر بالأشياء من حوله، وتحول فجأة إلى بركان من الغضب، ورفع مطرقته وضرب على الصخرة بكل قوته وكرر ضرباته عليها كأنه يضرب على غيابه وعلى سجنه وعلى جزعه من مغادرته تلك العتمة، فانهارت الصخرة أمامه، وانفتح الخاتم على النفق الطويل فاندفع الماء بقوة وجرف معه كل شيء. (6) هكذا كانت نهاية سالم في صراعه مع الماء أراد بكل ما اوتي من قوة ان يقاوم تيار الماء لكنه جرفه معه وغمره بمياهه فغاب مصيره عن مشهد الرواية وبقيت النهاية مفتوحة للتأويل أمام القارئ يضفي عليها ما يشاء من احتمالات التقدير .

الخاتمة

(1) ينظر:المرجع نفسه:186 .
(2) ينظر:المرجع نفسه:189.
(3) ينظر:تغريبة القافر:195.
(4) ينظر:المرجع نفسه: 217.
(5) ينظر:المرجع نفسه:125-127.
(6) ينظر:تغريبة القافر: 227-228.

يجسد الصراع بين البقاء والفناء صوراً مختلفة تختلف بطبيعة المواقف التي يتعرض لها شخوص الرواية، وتتنوع دلالات البقاء بين الخصب والأرض والأمطار والمياه العذبة، أما صور الفناء فتتخذ الفقد والموت والألم والحزن. ويشغل الماء حيزاً كبيراً فهو يشكل ثيمة بارزة تدور أحداث النص حوله وتتفرع منه. وتنطلق الأصوات سرداً نحو الموت أو العزلة أو الحبس. وبطل الرواية يسير مع الماء منذ طفولته وحتى نهاية الرواية إذ يقع أسيرا في أعماقه محاولاً مقاومة الموت بكل ما لديه من قوة ورفض الاستسلام للغرق حتى يتمكن من كسر الصخرة التي كانت تعيق خروجه فيجرفه التيار معه تاركاً النهاية مفتوحة حول مصيره المجهول.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً:الكتب:

- تجليات علم السرد قراءات تنظيرية وتطبيقية،د.منال بنت عبد العزيز العيسى، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت،ط1، 2018م.
- تغريبة القافر، زهران القاسمي،دار رشم للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2022م.
- تمثلات الموت في الرواية العراقية 2003-2013، فارس نايف الفايز، الرافدين، بيروت،ط1، 2017م.
- الخطاب في الاجناس الأدبية مداخل ومنظورات،أ.د.عزة شبل، دار النابغة للنشر والتوزيع، طنطا، ط1، 2023م.
- سرديات عراقية اضاءات في القصة والرواية والنص،د. فاضل عبود التميمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2013م.
- لسان العرب، أبن منظور، ج1 ،ج10، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1988م.
- مقتربات السرد الروائي دراسات في تقنيات سردية لنصوص روائية، د. سمير الخليل، دار روافد، بيروت، ط1، 2016م.

ثانياً: المواقع الالكترونية:

- https://arabicfiction.org/ar/node/2101